مـــلامح جديدة للكتابة الروائية النسائية العربية

محمد سيـــــد البحراوي

جامعة القاهرة.مصر

شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين ازدهارا كميا و كيفيا من الإبداع الأدبـــي العربـــي بأنواعه المختلفة ، وإن توترت درجات الازدهار بين نوع أدبي و آخر ، وبين الأقطـــار العربيـــة المختلفة ، و في اللحظات الزمنية المتغايرة . وضمن هذا الازدهار ، زادت نسبة النصوص التـــي كتبتها نساء عربيات ، عن نسبتها القديمة قبل السبعينيات ، و طوال تاريخ الأدب العربي كله منذ ما قبل الإسلام (1). و لا شك أن هذا التناسي في حجم مساهمة الكاتبات العربيات ، يعود إلى تناســـي دور المرأة في المجتمعات العربية تدريجيا عبر القرن حتى منتهاه ، كما أنه يعود إلى تزايد ســـهولة وسائل الطبع و النشر و الاتصال ، و زيادة حجم المتعلمات من بين النساء ، و تبلور حركة نسائية عريضة نسبيا في المجتمعات العربية ، و هي حركة ذات وثيقة بالتوجهات العالمـــية المعـــاصرة للاهتمام بالمرأة و هوية النوع (gender) و ما يسمى بالصحة الإنجانية و حقوق الإنسان ...إلخ .

رغم هذه الزيادة الملحوظة في مساهمة المرأة في الكتابة ، و مع ظهور عـــدد كبـــير مـــن المفكرات و الناقدات ، فإن إشكاليات الكتابة النسائية لا تزال هي ذاتها منذ بداية القرن المـــاضي و حتى الآن . فمازال التشتت بشأن قضية العلاقة بين المرأة و الرجل كأنما يبين آراء متعارضـــة . و مازالت الملامح التي يمكن الاطمئنان إليها علميا لكتابة نسائية متميزة عند ككتابة الرجال غائمة ، و هو الأمر الذي يهز الأركان المؤسسة لمصطلح ((الكتابة النسائية))

غير أن أبرز الآراء بهذا الشأن هو الرأي الذي يـــرى أن " الكتابـــة النســـائية " لا تتحقـــق بالضرورة على أيدي النساء . فليس كل ما تكتبه النساء نسائيا ، كما أن بعض نصـــوص الرجـــال يمكن أن تكون نسائية (féministe) ، و لا شك أن المقصود بالنسوية هنا هو الانطلاق مـــن المتطور النسوي الذي يضع قضية المرأة و حقوقها في مركز اهتمامه . غير أن هـــذا المتطـــور النسوي نفسه مشتت و موزع بين أكثر من اتجاه . فما هو المقصود بحقوق المرأة ؟ أن تتخلص من قهر الرجال ؟ و هل الرجل هو نوع (جنس) أم هوية نوعgender) . هل هذا القهر جـــدي / روحي ، فردي أم جماعي ! ، مطلق أم تاريخي ؟ . و كيف تتخلص المرأة مـــن

هذا القهر ، هل تريد أن تتساوى مع الرجل أم أنها تريد أن تتفوق عليه و تنتقم من قهره التاريخي لها ؟ .

تتلامس هذه التنوعات مع قضية من " خصوصية المرأة " سواء كان من أو في الكتابة ، هل هذه الخصوصية بيولوجية فقط أم سيكولوجية أيضا ؟ و هل هي ثابتة أم متغيرة بتغير طبيعة العلاقة مع الرجل و في ضوء التغيرات التاريخية و الاجتماعية . و هل تنعكس هذه الخصوصية في إبداعها من حيث الموضوعات و اللغة و التقنيات و الأنواع الأدبية بصفة عامة : لماذا يبدو إبداع المرأة المعاصرة أكثر في مجال القص منه في مجالات الشعر و المسرح ... الخ .

هذه الأسئلة جميعا مطروحة و بقوة ، و بدون إجابات مرضية أو مقنعة أو قادرة على حسم الخلاف (2) .

و مع ذلك فنحن نستطيع أن نتلمس بعض المرتكزات الأساسية من منطلق النصوص الروائية التي أتيح لنا الإطلاع عليها من إنتاج الكاتبات خلال نصف القرن الماضي . و أول هذه المرتكزات ، و ربما أهمها ، هو أن هؤلاء النساء حينما اخترن أن يكون كاتبات ، و ناضلن بقوة و شجاعة لإنجاز هذا الاختيار على مستوى حياتهن الخاصة و المنزلية و العائلية و على مستوى مؤسسات المجتمع ككل ، فقد كان اختيارا صعبا و وجوديا .بمعنى أن كتابة هنا تحمل الكثير من المعاني ، كما تشير كل الكاتبات في شهاداتهن و في نصوصهن . فهي فعل وجود و تحور و مساهمة في الحياة من متطور المرأة أيا كان هذا المنظور .بهذا المعنى ، فإن الكتابة عند المرأة ليست ترفا ، و ليست مهنة ، كما هي عند بعض الرجال ، يمكن الاستغناء عنها . بل هي ضرورة بديلها هو الموت.

و يبدو لي أن هذا المرتكز يصلح مدخلا لنفي جزء من المقولات السابقة . ليدخل كل نص كتبته امرأة في نطاق الكتابة النسائية ، و هذا لا ينفي إمكانية أن يكتب رجل نصا نسائيا . فكل امرأة " اقترفت إثم " الكتابة ، هي مناضلة بالضرورة

، طالما أنها كتبت و أثبتت " فعليا " حقها في هذه الممارسة الحية . بعد ذلك يمكننا أن ندقق في رؤية كل كاتبة و إنجازها بشأن قضية المرأة و مفاهيمها المختلفة . و سوف أفصل ذلك مع بعض النصوص الروائية التي قرأتها و أراها ممثلة للاتجاهات المختلفة في الكتابة النسائية ، و التي أراها تتوزع على امتداد منحنى يمثل صرفاه الأقصى : الانتصار للمرأة و الرغبة في الانتقام من الرجل في مقابل البعد التام عن قضية المرأة لصالح قضايا أخرى تراها الكاتبة أكثر أهمية مثل تهديد الوجود الإنساني العربي برفقة في اللحظة التاريخية الراهنة . هذه النصوص هي " الظهر العاري " لهزييت عبودي السورية و " ذاكرة الجد " لأحلام مستغانمي الجزائرية ، و " داريا " لسحر الموجي المصرية ، و من الخباء " لميرال الطحاوي المصرية ، و" زهرة الصبار" لعلياء التابعي التونسية ، و :" خرائط للموج " لسهام بيومي المصرية ، " الشموري " لسلوى بكر المصرية و " غرناطة " لرضوى عاشور المصرية و " أهل الهوى " لهدى بركات اللبنانية (3) .

و قبل قراءة كل من هذه النصوص على حدة ، لا بد من الإشارة إلى أنها جميعا نصوص روائية ناضجة و مكتملة و جميلة للأسباب التالية :

1 ــ تمتلك هذه النصوص قدرة بارعة على الغوص في أعماق النفس البشرية بتناقضاتها و تهويماتها و تواريخها المتعددة المتراكبة المتمايزة ، سواء كانت هذه النفس لرجل أو امرأة . و هنا لا بد من الإشارة إلى أن بعض هذه النصوص يعطى للرجل دور البطولة ، عكس و تزعم بعض الدراسات التي تجعل إعطاء دور البطولة للمرأة خصوصيته للكتابة النسائية . و أن هذا الملمح لا يعني بالضرورة أن الكاتبة ليست ذات موقف نسوي . فسوف نجد مواقف متراوحة بين الإدانة و الفهم في تلك الأعمال التي تعطي الرجل دور البطولة .

2 ــ تمثل هذه الأعمال الأدوات الفنية الماهرة في تجسيد هذا الفهم العميق للبشر و للعالم ، حسب حدود كل تجربة و مداها و خصوصيتها . و أتحدث

هنا عن اللغة و التقنيات الفنية القـــادرة على تقديم عملية عميقة للبناء الروائي يكفل له العمق و الإحكام بحيث تتحقق للنصوص حقوقها كامـــلة فـــي الانتمـــاء إلـــى الحـــق الروائي ، و من هذه التقنيات التداعي ، الأحلام ، الشـــعر ، الأســـطورة ، تداخل الأزمنـــة أحيانا ، التحليق ....الخ .

3 ــ و لا يضع هذا الحق ، اقتراب معظم هذه النصوص ، بدرجات متعاونة ، من حقل السيرة الذاتية ، باعتراف كاتباتها . و هنا لا بد من الإشارة إلـــى أن هـــذه الخاصية ، مثل غيرها من الخواص المذكورة هنا ، لا تعتبر ميزة خاصة بالكتابـــة النسائية . فهذا الاتجاه للنهل من مخزون الخبرة الخاصة ، هو اتجاه متصاعد فـــي الكتابة العربية بصفة عامة ، أي بين الرجال و النساء . و يمكننا هنا فقط أن نشـــير إلى الكتابات الأخيرة لعبد الرحمن سيف و حيدر حيـــدر و الطاهر وطار و بـــــهاء طاهر و محمد البساطي و جمال الغيطاني و أخيرا ابراهيم الفقيه...الخ.

4 ــ و الخاصية الوحيدة التي يمكن أن تجمع بين هذه النصوص و تميزها عن كتابة الرجال أنها جميعا تنتصر للمرأة ، و تدرك دورها في الحياة ، دور حيـــوي و يكاد يكون أساسا أكثر دور الرجال . غير أن هذه الروايات تختلف فيما بينها ــ بعد ذلك ــ في الموقف من الرجل . فرغم الفهم العميق المتحقق في كل الروايات للرجل كما أشرنا ، هناك ــ في النهاية ــ أحكام متفاوتة عليه . و الترتيب الـــذي ذكرتـــه أعلى يشير إلى تدرج يبدأ من " الظهر العادي " التي تجيد في لغة جميلة و بسيطة و حبكة محكمة تجسيد محام لبناني يعيش مغامرة عشق مع امرأة باريسيـــة عاريـــــة الظـــهر . لكن هذه المرأة التي تكاد تشبه " الفانية المقدمة " في الـــتراث القديـــم ، لكسب هذا الرجل كل أسلحته و تنتقل من رجل لآخر بحرية و شجاعة و دون تـــودد ، لكن بلطف و دماثة . بحيث لا يستطيع القارئ ــ المتفهم لأزمة الرجل ــ إدانـــة هذه المرأة ، و لا حتى التعاطف مع الرجل الذي سلم أسلحته و هزم .

و رغم أن الهزيمة في ذاكرة الجسد " لأحلام مستغانمي " لا تأتي فقط من المرأة بل من المجتمع ككل و عبر مراحل تاريخية مختلفة ، و التي تطال المرأة أيضا . لكن المرأة تظل أكثر صلابة و شجاعة من الرجل ، بدليل قيامها من الانكسار ــ في الجزء الثاني من الرواية ــ و البحث عن بداية جديدة .

هاتان الروايتان إذن ــ رغم أن بطلهما رجل ــ فإن هذا لا يعني الانتصار له ، بل هما ــ في نهاية المطاف ــ حكم بإدانته و هزيمته . و نفس هذا الحكم نلقاه في رواية سحر الموجي " درايا " رغم أن بطلتها امرأة . فهذه المرأة ــ حين تكتشف طاقاتها الإبداعية المكبوثة في ظل حياة زوجية تقليدية ــ في التخلص من الزوج ، و تدخل في علاقة حب جديدة أكثر إغناء لروحها و جسدها ، لكن هذا المحبوب يتخلى عنها في اللحظة الحرجة ، بضعف ، و هذا ما يعطيها مزيد من القوة لتواجه بها حياتها الجديدة و إن كان يناصرها في هذه الحياة رجل آخر ، هو الأب .

و في موقف الإدانة للرجل في رواية " الخباء " لميرال الطحاوي ، رغم اختلاف المنحنى فالرجل الوحيد " الأب " ضعيف مخذول تائه ، مستسلم للنساء ، سواء من أسرته أو للمرأة الأجنبية الطامعة فيه و في خيله ، و في ابنته أيضا : الرواية .

في مقابل ذلك نجد مجموعة روايات تصالح اللحظة التاريخية المعاصرة أو الماضية ، هي روايات علياء التابعي " زهرة الصبار" و " خرائط للموج " سهام بيامي و " الشموري " لسلوى بكر ، و " غرناطة " لرضوى عاشور . في هذه الروايات يتم التركيز على أزمة الإنسان في وجوده في لحظة تاريخية مهزومة سواء في فرنسا بعد هزيمة حركة التحرر الوطني ، أو في لحظة الحرب الأهلية في مصر بعد دخول الإسلام إليها ، أو في لحظة ضياع الأندلس . قد يكون البطل رجلا و قد يكون امرأة ، لكن الهزيمة تعمم لجميع بتفهم و عمق ، و مع ذلك فإن المرأة ــ و

خاصة ــ في هذه اللحظات ــ تقوم بدور الحاضن الحافظ للتراث و المعلم و ملـــح الأرض الذي يبقى و يدوم .

و من نفس هذا الهم تأتي رواية هدى بركات " أهل الهوى " لتنطلق مما خلفته الحرب الأهلية اللبنانية في نفوس البشر من دمار ، لتصل إلى تأسيس مفهوم جديـــد للعلاقة بين المرأة و الرجل . مفهوم ينفي القسمة الثنائية ، و يحاول أن يحل مكانها " جنسا " جديدا يجمع بينهما و ينفي الصدام و يرســـي أســـس التعـــاون و التفـــاهم لمواجهة الوجود المستعصية و التي تحتاج إلى مثل هذا التعاون .

في هذه الروايات جميعا انتصار بمعنى ما للمرأة و إبراز لدورها التاريخي في الحياة و لكن معظمها ، بل كلها ، تشير إلى أن الرجل مهزوم دائمـــا و ضعيـــف ، حتى و إن بدا قاسيا و قادها في بعض الأحيان ، و هذا ما يجعلني أختم هذا الموجز بضرورة الانتباه إلى هذه الظاهرة التي تبدو لي حقيقية مـــن مجتمعاتـــها العربيـــة المعاصرة . فالرجل الذي وقعت عليه سياط القمع و القـــهر مـــن كـــل الســـلطات المعاصرة أجنبية كانت أو محلية ، و الذي تحمل عبأ المواجهة المباشرة ، انتهى بـــه الأمر إلى الهزيمة ، و أصبح مفهوم " الرجولة " بالمعنى التقليدي موضع تخلخـــل و اهتزاز ، و هذا يؤدي إلى وضع العلاقة بين الرجل و المرأة ذاته في مرحلة انتقالية قلقة متوترة ، هذا ما أبرزته هذه النصوص المدروسة ، و لا ندري مـــاذا ســـتبرز نصوص المرأة القادمة .

هـــــــــوامـــــش

1 ــ يشير نزيه أبو نضال إلى عدد الروايات التي كتبتها نساء عربيات في الفترة ما بيــن 1888 و حتى 1996 و قد قارب الخمسمائة رواية . و تضيف بيلوجرافيا حمدي لسكوت ثلاثة عشرة روايــة أخرى بعد هذا التريخ حتى 1999 و تظن أنها لم تستوف كل الروايات التي صدرت ، فهي علـــى كل حال طبعة تجريبية . راجع مصطفى الكيلاني : في الرواية العربية و الرواية النسائية تحديـدا . ضمن أعمال الملتقى الثالث للمبرعات العربيات. دار كتابات و مهرجان سوسة الدولي ط . بيروت 1999 حث .

2 ــ راجع دراسات و شهادات كل من محمود طرشونه و بوشوشه بن جمعة و عبد الله إبراهيــم و سعيد يقطين و أحلام مستغانمي و نجوى بركات و سحر الموجي في الرواية العربيـــة النســائية ، المرجع السابق .

3 ــ هزييت عبــودي : الظهر العادي " دار النهار . بيروت 1998 .

أحلام مستغانمي : ذاكرة الجسد . دار الآداب . بيروت 1992 .

سحــر المــوجي : داريا . الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة 1999 .

ميرال الطحاوي : الخبــاء . دار شرقيات . القاهرة 1996 .

علياء التابعي : زهرة الصبار ، دار الجنوب للنشر . تونس 1990 .

سهـــام بيومي: خرائط للمــوج ، دار الهلال . القاهرة . 1998 .

سلوى بكـــر : البشــموري ط دار الهلال . القاهرة . 1999 .

رضوى عاشور: غرناطة و مريمة و الرحيل . دار الهلال . القاهرة . 1994 ــ 1995 .

هــدى بــركات : أهــل الهــدى . دار الآداب . بيروت 1992 .